الفصل السابع

الطائفية في الوطن العربي

تعريفها وأسباب ظهورها، قراءة في المنهج

ملاحظات نقدية للحلقة النقاشية: "الطائفية والمذهبية وآثارهما السياسية"، شارك فيها أنطوان ضو وآخرون؛ قدم الحلقة وأدار الحوار يوسف الصواني، المستقبل العربي، السنة ٣٥، العدد ٤٠٨ (شباط/ فبراير ٢٠١٣)، ص ١٢– ٦٩.

-١-

قدَّم مركز دراسات الوحدة العربية عبر تاريخه الطويل، ثروة من الدراسات والبحوث في معالجة الكثير من القضايا والمشكلات التي تتعرض لها الأمة العربية بمختلف أوطانها، يكفي بعض هذه الدراسات، لو توفرت الإرادة عند صاحب القرار العربي، لأن تشكل أرضية لحل جميع المشكلات المتعلقة بالتنمية وحيازة القوة، وتحقيق الاستقلال الفعلي، والتحرر من التبعية، بل وتحقيق الأمن الوطني والسلم الاجتماعي، لذلك جاءت الحلقة النقاشية لموضوع (الطائفية والمذهبية وآثارهما السياسية) دون مستوى كل الندوات التي عودنا عليها المركز لقضايا أقل أهمية وخطورة من قضية الطائفية.

فمن قراءة الأوراق المقدمة يكشف القارئ أن ورقة "سليمان تقي الدين" هي المحاولة الجادة الوحيدة التي تميل إلى الاقتراب من المشكلة، أما ورقة "أنطوان مسرة"، ورغم أنها معنونة (ما معنى الطائفية وكيف ندرسها اليوم)، فهي لا تقدم تعريفاً بالمشكلة، ولا بالمنهج العلمي السليم لدراستها.

البحث الآخر والرئيسي الذي قدَّمه "فالح عبد الجبار"؛ يعكس حالة تيه منهجي في معالجة الظاهرة، رغم محاولة الكاتب إضفاء صفة أكاديمية على مقاله من خلال إشاراته المتكررة إلى مصطلحي (الدراسات الأكاديمية) ، و(العالم الأكاديمي) ؛ للإيحاء بخضوع الدراسة لمناهج البحث العلمي، إلا أنَ القارئ سرعان ما يلاحظ أن الكاتب ضاع أو تاه في مناهج غربية غريبة لا تُضفي أية معرفة موضوعية جديدة للظاهرة، بل دخل في متاهات تجعل من العصي على القارئ فهم الظاهرة.

ينطلق الكاتب من فكرة اختارها لتكون مدخل إلى مقاله، ولتعطي القارئ الانطباع بأن الكاتب كان قد اطلع على كل الدراسات التي عالجت مشكلة الطائفية، خصوصًا تلك التي صدرت باللغة الإنجليزية في الغرب، لينتقد ندرة أو انعدام مثل هذه الدراسات في الوطن العربي.

تستوقفنا الملاحظة على حقيقتين : إن مراجعة الدراسات التي ذكرها الكاتب لا علاقة لأغلبها الحالة العربية، باستثناء ما ورد منها تحت عنوان (مراجع الحالات العربية والدول الإ لامية)، وهي لا تعكس أيضًا حقيقة ما كتب عن المشكلة باللغة الانجليزية، والسؤال هنا أو الملاحظة المهمة هي أن الكاتب ينطلق من واقعة تعكس عدم معرفته كليًا بمئات الدراسات التي صدرت باللغة العربية لمناقشة موضوع (الطائفية) في الوطن العربي، والعراق خاصة، سواء نظرنا إليها بوصفها ظاهرة معزولة عن توجهات الإسلام السياسي أو كمرحلة من مراحل تطور الإسلام السياسي الذي بدأ يتخذ في السنوات الأخيرة تمايز واختلاف داخلي، على أساس التفسيرات الفقهيّة المختلفة للشريعة الإسلامية، مصحوبة بشحنات تعصبية عدوانية في كثير من الأحيان.

وإذا أخذنا بطريقة عبد الجبار الذي أدرج تحت عنوان (مراجع عامة) (لا دخل في الحقيقة لأكثرها بالحالة العربية)، ويعود تاريخ بعضها إلى أعوام ١٨٠٦، و١٨٣٥، و١٨٣٧، و١٨٥٤، فإنه يسمح لنا بذكر ما كتبه جورج أنطونيوس

عام ١٩٣٧ في كتابه يقظة العرب عن توجهات السلطان عبد الحميد وخططه لإذكاء الطائفية ومشاغلة الرعايا العرب بالخلافات الطائفية البينية، لمنع ظهور حركة قومية عربية تهدد دولته ، والكتاب مكتوب في الأصل بالانجليزية ، وصادر في زمن أحدث من المصادر التي أوردها عبد الجبار.

وحول ما كتب بالعربية، وما يخص الحالة العراقية؛ لا يمكن تجاوز ما كتبه الشيخ محمد حسين كاشف الغطاء بالعربية في المقدمات السبع لكتابه أصل الشيعة وأصولها، المنشور عام ١٩٥٧، وما كتبه الشيخ أحمد الوائلي في كتابه هوية التشيع، إضافة إلى كتابات ومعالجات علي الوردي المنتشرة على امتداد مؤلفاته العديدة.

ومن الصعب حصر ما كتب بالعربية عن الطائفية بمقال محدد ، وأمامي الآن في مكتبتي المتواضعة أكثر من ٧٠ دراسة تعالج أو تناقش مشكلة الطائفية كظاهرة مستقلة قائمة بذاتها أو امتداد وشكل من أشكال تطور الإسلام السياسي، أي كجزء من ظاهرة التدين أو ما يسمى (الصحوة الدينية).

وقد شارك مركز دراسات الوحدة العربية نفسه بنشر الكثير من الدراسات عن الظاهرة ضمن ندواته وحواراته ومناقشات مجموعة من الباحثين، نشرت تحت عنوان الدين في المجتمع العربي عام ١٩٩٠ ، والكتاب يضم الكثير من الدراسات العلمية والملتزمة بمناهج علم الاجتماع وعلم النفس الاجتماعي ، كذلك هناك دراسة كتبها عبد الحكيم أبو النور ، ونشرها المركز بعنوان الحركات السلفية في المغرب عام ٢٠٠٩.

-٢-

وفي ما يتعلق بالظاهرة في العراق ، كتب موسى الحسيني ساطع الحصري والخطاب الطائفي الجديد عام ٢٠٠٠، وعام ٢٠٠٦ ناقش الظاهرة من خلال كتابه "المقاومة العراقية والإرهاب الأمريكي المضاد" ، وهناك دراسة أخرى

بعنوان "المرجعية الشيعية والسياسة في العراق" نشرت في حلقات بجريدة القدس العربي في شهر حزيران/ يونيو ٢٠٠٦.

كما ناقش أحمد الكاتب الموضوع في عدة كتب، وخصص لها كتاب خاص نشره بعنوان: (السنة والشيعة: وحدة الدين) (عام ٢٠٠٧)، وكتب رشيد خيون (لاهوت السياسة: الأحزاب الدينية المعاصرة في العراق عام ٢٠١٠)، كما كتب فاضل الأنصاري: "قصة الطوائف: الإسلام بين المذهبية والطائفية عام ٢٠٠٠".

إضافة إلى أن هناك عشرات أو مئات أخرى من الدراسات التي قدمها باحثون وكتّاب من مصر ولبنان وأقطار عربية أخرى، فضلاً عن الدراسات العديدة التي ما فتئت تنشرها المجلات العلمية المتخصصة عن موضوعات علاقة الدين بالسياسة والطائفية كامتداد لها..

تعكس الكتابات المنشورة باللغة العربية تجربة شخصية مباشرة لمن كتبوا عن الموضوع، كما عايشوه أو تفهموه وتفاعلوا معه، وقد يكون بعضها مشحون بشحنات عاطفية تسيطر على موقف هذا الكاتب أو ذاك الموضوع، إلا أنها تعكس في النهاية تجربة تعايش من قرب ومن الداخل بقوة وتفاصيل كثيرة، تنفع في فهم الظاهرة أكثر من أية دراسة أجنبية.

وحتى مع الإقرار ببساطة المناهج التي اعتمدها بعض الكتاب العرب؛ فإنّها تعكس تجربة تفاعل فيها الكاتب مع الظاهرة، وانفعل بنتائجها ملامسًا حتّى في حالة انحيازه، جوهرها، بينما ينظر إليها الكاتب الأجنبي من منظور صلتها أو مساسها بالمصلحة القومية لبلده من دون أن يعيشها من الداخل، وقد يتجرد أحيانًا من الموضوعية في تحليلها.

يدخل الكاتب، كما قلنا، من مدخل جانبي أو من البوابة الخطأ، من خلال تيهه في تعريف الظاهرة بسبب اندهاشه بالدراسات الأجنبية، على ما يبدو، يبدأ الكاتب بتعريف الطائفية بعبارة: (يتفق العالم الأكاديمي على أن الهويات الدينية الجزئية (الطائفية) تقوم على عدة ركائز)، ولم يخبرنا بحاشية على الأقل من هو هذا العالم، ولو جزء منه، أو حتّى اسم باحث واحد فقط، ثم نراه يحشر قسرًا مصطلحات لا علاقة مباشرة لها بالتعريف ؛ مثل: (الأمة الدولة)، (الهويات الاجتماعية)، (الطبقات القبائل)، ليدخل القارئ في فوضى من المفاهيم التي تحتاج كل منها إلى وقفة خاصة لنعرف على الأقل ما هي علاقتها بالمفهوم المقصود تعريفه.

وثالثة الأثافي في تيه الكاتب وضياعه في تعريف الطائفية هو ما أورده من نص غريب ومبهم عن علاقة القبيلة والطبقات بالطائفية، فيقول: (وثالثهما أن الهويات الدينية الجزئية تنشطر بتأثير التنظيمات الاجتماعية (قبائل وطبقات)، أو هي التي تشطر هذه التنظيمات، وبغض النظر عن هذه اللغة الانشطارية العجيبة التي تكون فيها الطائفية عامل انشطار، وربما عاملاً منشطرًا أيضًا خاضعًا لتأثير الطبقات والقبائل في وقت واحد، فأين هو الصحيح لنعرف ماهية الطائفية وطبيعتها؟.

هذا مع أن الكاتب كان قبل سطر واحد فقط وخلال محاولته تعريف الطائفية، وفقًا لما وافق عليه العالم الأكاديمي لتعريف الحالة، وثانيتهما تسييس هذه الهوية كوحدة للفعل الجمعي كبديل من الهويات الاجتماعية (الطبقات)، أي أن الهوية الطائفية البديل من الهوية الطبقية في ثانيًا، تتحول إلى عامل تابع قابل للانشطار بفعل الطبقات في ثالثًا، أي أن القارئ يقع في متاهة ما يشبه حالة الدور الفلسفي، فالطائفية كبديل من القبلية والطبقات تعود إلى الخضوع ثانية لعاملي الطبقات والقبلية، فتتأثر بهما، بما ينفي صفة البديل منها.

الطائفة ببساطة وبعيدًا عما اتفق عليه "العالم الأكاديمي للكاتب"؛ هي ميل فردي أو اجتماعي إلى تفضيل تفسير محدد أو مدرسة فقهيّة محددة لدين أو مذهب على غيرها من الأديان أو المذاهب، يأخذ بتأثير ظروف اقتصادية سياسية، صفة تعصبية تتداخل مع مفهوم اعتبار الذات في تفضيل أبناء المذهب نفسه أو الدين نفسه على غيرهم من المنتمين إلى مذاهب أو أديان أخرى.

وقد تتصاعد هذه الميول أحيانًا إلى حد تتخذ فيه أشكال عدوانية تجاه المذاهب أو الأديان الأخرى، ويكون هناك ميل إلى النبذ والرفض وحتى العزلة عن الآخرين، أي هي نتاج تفاعل عوامل سياسية اقتصادية اجتماعية ذات مساس مباشر بحياة الفرد اليومية، امتزجت مع تهديدات أمنية للهوية الثقافية للمجتمع، لتشكل توجهات اجتماعية تعصبية نحو الآخرين الذين يختلف معهم الطائفي في تفسير الشريعة أو المعتقدات الدينية.

ويبدو أن الكاتب لم يقتنع بما قدمه من تعريف للطائفية، لذلك وقع في خلط واضح للكثير من المفاهيم عن الدولة السلالية التي يجب تمييزها من الدولة الحديثة التي ركز الكاتب على أن فشلها كان نتيجة عدم ترضية حاجات الإنسان العربي، فالدولة السلالية كما يرى: (وهي بلدان سلالات ترتكز على الدين، وهي بالتالي مولدة للانقسام الطائفي) (ص ١٥)، في محاولة لتمييزها عن (الدولة الحديثة التي تتسم بشرعية دستورية أو شرعية ثورية ذاتية، فهذه الأخيرة هي المصابة بلوثة الإحياء للهويات الجزئية) (ص ١٥).

لكن القارئ لم يعِ ما هو الفرق بين (توليد الانقسام الطائفي) في الدولة السلالية، و(لوثة الإحياء للهويات الجزئية في الدولة الحديثة) كي يعرف أدوار كل من أشكال هذه الدول في ظهور الطائفية بوضوح في السنوات العشر الأخيرة بعد احتلال العراق عام ٢٠٠٣، رغم أن الكاتب يقر في مكان آخر بأن الطائفية لم تبلغ مدى هائل من التسيس والعسكرة إلا بعد الاحتلال الأمريكي، (ص ٢٢). لكن دور هذا الاحتلال يختفي كليًا عن الصورة في جميع الأبعاد والمنابع

والدول السلالية، أو الأمة الدولة وغيرها من المصطلحات التي تبدو وكأن الكاتب أراد أن يخبئ خلفها عدم معرفته الأكاديمية بالموضوع.

هذه الإشارة إلى الاحتلال كانت الإشارة اليتيمة الوحيدة إلى أي أثر لعامل خارجي يمكن أن يكون قد أدى دورًا في إذكاء روح الطائفية الظاهرة كما يصفها الكاتب، هي نتاج عوامل وظروف محلية تراثية ثقافية اقتصادية، إدارية أمنية، كما لا تبتعد أيضًا من حقل التعليم، والحقل السياسي والأيديولوجي وحتى المواطنة، ولم يترك عبد الجبار ظاهرة من ظواهر الحياة الاجتماعية إلا وأدرجها، كي يضفي على تشكل الطائفية وظهورها بهذا الشكل العدواني المسلح، عوامل محلية ذاتية خالصة تعود إلى ما سماها (المنابع الكامنة لتسييس الهويات الطائفية)، نعني مصادر تحويل هذه الأخيرة من هويات ثقافية صرفة إلى هويات أيديولوجية تحل محل الأيديولوجيات الحديثة في الفضاء السياسي الفكري العربي وخارجه أيضًا، ثم يردفها مباشرة برفض أن يكون تحديد هذه المنابع الكامنة للتسييس يفسر هذا التسييس بالمرة، فهذا التسييس ظاهرة حديثة تمامًا (ص ٢١)، وهذا النهج هو أسلوب الكاتب بالقول بالشيء وضده.

-٤-

لا يدري القارئ لماذا يصر عبد الجبار على تفسير الطائفية على أساس منابع لا تفسرها، كما يقر وهو لم يحاول البحث في الأسباب الحقيقية، وأي منهج أكاديمي بإمكانه تبرير ذلك؟! كما لم يوضح الكاتب لماذا بدأت هذه المنابع، وهو يؤكد وجودها على امتداد التاريخ، بإعطاء ما نراه من نتائج تفشي الطائفية بصيغتها العنفية العدوانية التي نراها عليها الآن، فما دامت هذه المنابع موجودة لماذا لم تظهر نتائجها في القرن الماضي، أو حتى في فترة ما قبل احتلال العراق عام ٢٠٠٣؟.

التناقض غير المفهوم نفسه يقع فيه الكاتب مباشرة في الفقرة التالية لموضوع المنابع، فهو يرى أنه ينبغي أن تتمحور منهجية دراسة الطائفة المسيّسة حول الدولة كفاعل أساسي لجهة وظائفها وسياساتها وتوجهاتها، لكنه يعود مباشرة في الفقرة التالية ليتكلم على قدرة الدولة على نقض وتجاوز واحتواء كل القوى الجزئية، ويتوصل في النهاية إلى القول نحن نرى كما أشرنا، أنَ الطائفية كحدود ثقافية للجماعات كانت سابقة لنشوء الدولة الحديثة، أي عادت الدولة الحديثة لتحوز على صك براءتها من أن تكون سبب لظهور الطائفية السياسية بعد أن كانت هكذا على امتداد الصفحات الثماني الماضية، هي السبب الأساسي في ظهور لوثة (الإحياء للهويات الجزئية) (ص ١٥)، إلا إذا كان الكاتب قد عاد عن اعتبار الطائفية من الهويات الجزئية التي حددها خلال تعريفه للطائفية.

إن الأمثلة على القول بالشيء وضده كثيرة، وتكاد تصادف القارئ في كل صفحة من النص... نكتفي بهذا القدر الذي ذكرناه اختصارًا للحديث بقدر ما تسمح به مساحات النشر.

إن الطائفية كظاهرة اجتماعية وحركة سياسية لا يمكن عزلها بأي شكل من الأشكال عن موجة التدين أو التأسلم، أي استخدام الدين في السياسة لتحقيق أغراض دنيوية لا دخل لها بالدين أو حسابات الآخرة، فهي حالة تدين تتمسك بتفسير مدرسة فقهية واحدة للدين، بوصفه التفسير الوحيد المعبر عن الشريعة أو تعاليم الدين وأساسيات تعاليمه، وأن كل ما عدا هذا الالتزام الأحادي بمذهب أو دين محدد يمكن أن يندرج تحت مفهوم الخروج على الدين أو الشريعة عندما تكون هوية جزئية.

يصف عبد الجبار (الطائفية) بأنها هويات دينية جزئية، أي أن الدين هو الأصل بما يعني أنه لا يمكن مناقشة الطائفية كهوية جزئية بفصلها عن الأصل، ونعني بذلك موجة التدين أو التوجهات الدينية التي غزت الساحة العربية، فهي؛ أي الطائفية، جزء من الظاهرة الأم أو الأكبر، ظاهر التدين التي راحت تتطور بفعل عدة عوامل أدت إلى تمسك الطائفيين بتفسير أحادي من الاجتهادات المذهبية، بوصفها تمثل حالات انحراف عن جوهر الدين.

أي أن الطائفية يجب أن تدرس على أنها جزء من ظاهرة التدين، اتخذت خلال تطورها مظهر تعصبي عدواني، فهي ميل أو توجه اتخذ صفة اجتماعية ليعبّر عن أزمة يعيشها المجتمع، ومعرفة أسبابها ومظاهرها لا يمكن أن يتحقق إلا من خلال دراسة مناهج علم النفس الاجتماعي وعلم الاجتماع، عن تشكل وشيوع ما يعرف بالميول أو التوجهات الاجتماعية، ولماذا تتخذ أحيانًا أشكالاً تعصبية تميل إلى العدوانية أو النزوع إلى عزل الآخر أو الانعزال عنه.

هناك الكثير من التفسيرات التي وإن ركزت على الجانب السياسي أو الاقتصادي في أسباب الأزمة؛ إلا أنها لا تخفي انعكاسات هذه العوامل على سيكولوجيا الإنسان العربي.. لذلك لا أزعم الانفراد باكتشافها أو القول بالأسباب النفسية كعامل أساسي لظهور الميول أو التوجهات الدينية بهذا الحجم الواسع، وهو ما سبق أن بحثته في دراسة لنيل شهادة الدبلوم العالي في علم النفس الاجتماعي، في مدرسة لندن للعلوم الاقتصادية والسياسية، تحت عنوان: (الأسباب النفسية للثورة الدينية في الشرق الأوسط)، التي توصلت من خلالها إلى أن أهم تفسير لشيوع الظاهرة الدينية يجب البحث عنه في تراكم مشاعر العجز والإحساس بالضعف والفشل والإحباط والخوف، أو انعدام الشعور بالأمن التي بدأت تضفي بظلالها على المواطن العربي بعد نكسة حزيران/ يونيو ١٩٦٧.

رغم أن عبد الناصر بلاءاته الثلاث وإصراره على المضي بالحرب إلى نهايتها حتّى تحقيق النصر ؛ تمكن من تهدئة هذه المشاعر خلال السنوات الثلاث الأخيرة من عمره، لكنه لم يلغها أو يطمئنها كليًا، فكانت تظهر نتائجها في التظاهرات الاحتجاجية لطلاب جامعة القاهرة عام ١٩٦٨، وظهور بدايات الحديث عن: لماذا تخلى الخالق عن نصرة المسلمين، وقد برزت هذه المشاعر وما تبعها من تساؤلات لتضغط بشدة بعد نجاح السادات والغرب في تحويل نتائج الانتصار المحدود في حرب ١٩٧٣ إلى سلوك مهزوم يريد الاتفاق مع العدو وإرضائه بأي صورة وأي ثمن، فكان أن بدأ الانتصار العربي المحدود يظهر بصورة الهزيمة أمام عدو حقق كل ما يتطلع إليه من تنازلات من دون مقابل.

تميل سيكولوجية الإحباط المتفاعلة بعوامل الإحساس بالعجز والفشل والضعف والخوف إلى التشبث بالآمال التي يمكن أن يقدمها إليها أي حدث يعزز الآمال باحتمال التخلص من ضغط الحالات السيكولوجية هذه ، وتحقيق التوازن والاستقرار النفسي ، فكانت الآمال التي تشكلت بنجاح الثورة الإسلامية في إيران كبيرة بحجم تفاعلات الخيبة العربية ، فتجاوز التأييد والتهليل بالثورة الإيرانية كل الخلافات المذهبية ، وراح الإسلاميون العرب يتوافدون على طهران لإعلان الوفاء والالتزام بمبادئ الثورة والدعم المطلق لها..

ولم يطل الوقت لتتكسر هذه الآمال بطريقة إحباطات جديدة قوية، هذه المرة مع اندلاع الحرب العراقية الإيرانية، وانشغال أكبر وأقوى دولة إسلامية بالحرب مع أقوى دولة عربية ، ثم جاءت ثالثة الأثافي في حرب الكويت بنتائجها الكارثية، ليس فقط على أقوى دولة عربية كانت محط آمال وأنظار الكثير من العرب، بل لتقضي على المفهوم البائس لما عُرف بالتضامن العربي، انتهاءً بحرب احتلال العراق عام ٢٠٠٣.

رافق كل هذه التطورات ما ظهر في الحياة اليومية من تطبيقات حرب النجوم، ووسائل الاتصال والتواصل التي بدأت تظهر في الحياة اليومية للمواطن، ليجد العربي نفسه وهو يتفرج ويطلع على حجم التقدم العلمي والتكنولوجي، ومستويات الرفاهية التي تعيشها شعوب العالم، إنه يقف عاريًا على هامش الحياة في أسفل سلم التخلف والضعف والتبعية والحرمان أيضًا.

يتفق علماء النفس الاجتماعي على أن الحرمان النسبي هو أحد أهم عوامل الهياج والثورات الشعبية (سنعود إلى أثر الحرمان النسبي وأثره في حالات الثورة والهياج الاجتماعي)، لكن قبل ذلك سنجيب عن السؤال التالي: ما علاقة عوامل الإحباط ومشاعر العجز والضعف بالتدين؟ من الملاحظ أن الإنسان عند مواجهة أية مشكلة معقدة يفشل في حلها، أو عند تعرضه لرغبة محبطة؛ يبحث عادة عن أي قوة أو قدرة يمكن أن تعينه على تجاوز فشله والتغلب على ضعفه وخوفه، وعادة ما يلجأ إلى الأهل والأقارب أو المعارف والأصدقاء للاستعانة بهم، وعندما لا يجد العون؛ تبدأ منظومة الميكانيزمات الدفاعية السيكولوجية اللاشعورية للإنسان بدفعه إلى واحد من ثلاثة مواقف أو استجابات.. إن وظيفة ما يعرف بـــ (الميكانيزمات الدفاعية اللاشعورية) هي أنها تساهم عادة في تخفيف ضغط المشعر التي تتشكل بفعل عوامل الإحباط والفشل والعجز والضعف، ومشاعر الخوف أو تهديد الأمن النفسي الداخلي للإنسان:

• يبدأ بالتفكير في القدرات الروحية الخارقة، وذكر الله وعلاقته بالإنسان العربي لم تنقطع يومًا، مهما تبنى من أفكار أو توجهات علمانية، هو يسمع يوميًا من خلال الراديو والتليفزيون ومكبرات الصوت في المساجد، وحتى من الناس في أحاديثهم العامة عن الله (القادر، القوي، العظيم، المعين) الذي ليس لمثل قدرته شيء، يتوجه الإنسان عادة إلى هذه القدرة اللامتناهية للخالق يتوسله بالدعاء ثم العبادة، لا كاكتشاف جديد لقدرات الخالق أو إيمان تشكل بفعل قناعة

وتفكير جديدين، بل كحاجة واضطرار، في ما يشبه محاولة لخداع الخالق لأخذ ما عنده من قدرة وعظمة للتغلب بها على عوامل الإحباط والاستقواء بها على عوامل الضعف والانتصار على الفشل والعجز.

والملاحظ في سلوك هؤلاء المتدينين أنهم وإن كانوا صادقين خاضعين في توسلاتهم وعباداتهم للخالق إلا أنهم في الغالب يتصرفون من دون حساب للخوف من الخالق في تعاملاتهم اليومية، فالعبادة هنا هي حاجة دنيوية وليست إيمان ورغبة بالآخرة، فهي ثمن بديل مقابل كسب قدرة الخالق أو استعارتها لقضاء حاجات لا يمكن إيجاد سبل أخرى إلى قضائها أو تحقيقها.. أي أنهم بقدر ما هم صادقين بما يعرف بالعبادات، فإنهم لا يحسبون حساب للخالق في تعاملاتهم العامة أو ما يعرف بالمعاملات.

التعبد بالطريقة السابقة أو التدين الجديد له وظيفة سيكولوجية أخرى هنا، إذ أنه يضفي نوعًا من الهدوء والاستقرار والتخلص من مشاعر العجز والضعف من خلال التسليم أن ما يعانيه الإنسان ليس ناتجًا من عوامل ضعف ذاتية خاصة به بل بفعل إرادة إلهية قد يكون فيها خير أو صالح لا يفهمها الإنسان، فيعيد الإنسان المؤمن الانسجام مع نفسه، وتتعزز لديه قيم اعتبار الذات.

• قد يبدأ المحبط بحسب مستواه التعليمي وما اندس في عقله من أفكار نمطية مسبقة ما يدفعه إلى البحث عن حل لمشكلاته في السحر والشعوذة، والبحث عن القوى الخارقة الأخرى البديلة من الخالق التي تمنحه القدرة على التغلب على عوامل الإحباط والفشل... ربما لا يكون عفويًا أن المؤسسات المعنية بشؤون الوطن العربي والقوى التي لها مصالح فيه هي من يقف وراء التخطيط لشيوع كتب السحر والشعوذة، والترويج للسحر والمشعوذين الذين بدأ ظهورهم يحتل ساعات طويلة من البث التليفزيوني، حتى على محطات تحسب بحساب الاتزان من أجل تشويش العقل العربي وتعطيله، وتجريده من عوامل قوته وإدراكاته وملكاته الطبيعية.

• هناك اتجاه ثالث، ربما لا تكون عند المحبط خلفيات قوية (فكرية أو تربوية) تشده إلى هذه القوى الروحية أو الخالق القادر، القوي، المسيطر، الذي بيده كل شيء، فنراه بدلاً من اللجوء إلى الدين والسحر يلجأ إلى عالم أحلام اليقظة ليشكل منها حياة غريبة من أحلام القوة والقدرة والانتصار على الأزمات والإحباطات... إن أحلام اليقظة يمكن أن تخلق حالة تشوش عقله أيضًا، وتحرمه من التفكير المنطقي، مادامت هذه الأحلام تحقق له التوازن مع ضغوطات عوامل الإحباط ومشاعر العجز والضعف، وتكون هذه الأحلام أحيانًا من القوة بحيث تمتزج بواقع الإنسان إلى حد لا يستطيع معه الفرز بين الحلم والواقع.

إلا أن الإنسان بحكم قابلية التأثر بالإيحاء عندما تكثر وتتعدد مصادره، فهو يتأثر بتوجهات الآخرين نحو الدين أو السحر والشعوذة أكثر من أحلام اليقظة، وأحيانًا تتداخل هذه الأشكال الثلاثة جميعًا لتحقق للإنسان هدوءه واتزانه.

-٧-

بالعودة إلى ما ذكرناه سابقًا عن تطور وسائل الاتصال والتواصل، وما تصنعه من عوامل الإحساس بالحرمان النسبي، سواء كان ذلك بتخطيط مدروس أو هو شعار ارتجالي برز ليجسد الآثار السيكولوجية لحالة الحرمان النسبي، إذ بدأنا نسمع بعد حرب الكويت عن موضوع (مظلومية الشيعة في العراق)، كنموذج لبيئة وقعت تحت تأثير الهواجس الطائفية، كشعار بديل من الثورة الإسلامية، بعد أن تخلى المجلس الأعلى عن هدف أو شعار الحكومة الإسلامية والقبول بمشاركة أية قوى أخرى على أساس الخلاص من هذه المظلومية يوضح التدقيق في الشعار أن المظلومية هي هم دنيوي لا علاقة لها بالدين، فالمظلومية تؤكد دعوى حرمان الشيعة من المشاركة في الوظائف الحكومية الكبرى والحكم عامة، وما يعنيه ذلك من امتيازات ومكاسب... إنه

مؤشر خطير يشير إلى عزل الطائفة عن أصول الدين وأساسياته، والابتعاد عن هموم الآخرة، والتركيز على الامتيازات ومظاهر الترف الدنيوية.

في مجرى الحديث عن تحول (الطائفية) إلى وظيفة دنيوية لا دخل لها بالدين الذي نعرف أنه يرتكز على العمل في الدنيا لكسب رضا الخالق، وما يحققه هذا الرضا من مكافأة بالجنة في الآخرة، قدم متأسلمو العراق بطرفيهم (الشيعي والسني) من خلال تعاملهم مع الاحتلال الذي كان إلى حد الأمس القريب يمثل الشيطان الأكبر، مثالاً نموذجيًا على أن الطرفين لا يحسبان للآخرة أي حساب، فهما مشغولان بتحقيق منافع ومصالح دنيوية (حصة في وظائف الدولة، وأموال الدولة ومشاريعها وخدماتها في الأماكن المختلفة الخاصة بكل طائفة)، على حساب ما كانوا يقولون به من ضرورة (الحفاظ على بيضة الإسلام)، تلك البيضة التي دفعت مجتهدي الشيعة في العراق إلى أن يفتوا بواجب الجهاد في ليبيا ضد الغزو الإيطالي لها عام ١٩٠٨، ويقودوا حركة الجهاد ضد الاحتلال البريطاني دفاعًا عن الدولة العثمانية التي تختلف عنهم مذهبيًا، بل تمارس سلوكيات طائفية ضدهم أحيانًا، إلا أن احتلال العراق وأفغانستان لم يثر الاهتمام نفسه عند المرجعية ولا التجمعات الدينية بالمستوى نفسه.

• يستطيع أن يحكم الإنسان، هل ذلك هو نتيجة تخطيط مسبق ومعد مقدمًا، أو هو تأثر بالحالة العامة وانعكاس لها، أن تتحول المرجعيات الدينية أيضًا إلى مؤسسات برجوازية في السلوك والمظهر، وتتركز فتاويها حول أمور دنيوية صرفة لا علاقة لها بالشريعة ولا الدين، فيفتي السيستاني بضرورة الاقتصاد باستعمال الكهرباء غير الموجودة أصلاً، وبحماية الحدود من الإرهابيين، والتعاون مع الاحتلال، ويلغي من رسالته الدينية وفتاويه بند الجهاد نهائيًا، ويعيش وأبناؤه وأصهاره في بذخ غير معهود عن المرجعية الزاهدة.

ويفتي القرضاوي بالتعامل مع (الناتو) للقضاء على أنظمة محسوبة على قوى الرفض، كما أصبحت الأموال العامة الموضوعة كأمانة عند المرجع تورث مع

كل الامتيازات الأخرى لأبنائه، من دون حساب لما هو شائع من تحريم لأكل أموال السحت، تركزت فتاوى أنصاف الفقهاء حول الجنس والمرأة، وكأن ليس هناك من هموم أخرى في الحياة والدين غيرهما، وتخصص بعضهم بتكفير الآخر، والبحث في مصادر التاريخ عن رواية ضعيفة هنا أو قصة هناك، لتغدو وكأنها هي مشكلة المشاكل بالنسبة إلى الإنسان العربي.. لقد أصبحت الجمعيات والمراكز الإسلامية وبناء المساجد تجارة مربحة، وأفضل الوسائل لتحسين العيش والمركز الاجتماعي، من دون اعتبار للآخرة وعذاباتها، أو متع الجنة المتوقعة فيها.

إن كل هذه المظاهر تعني أن (الطائفية) ليست موقفًا دينيًا أو التزامًا بتشريع فقهي معين وتفضيله على ما سواه، كما كنا نعهدها، بل هي دعاوي دينية تمَّ تطويرها وتحريفها لتشكل غطاء زهدي وروحي على مطامع ورغبات دنيوية لا علاقة لها برضا الله أو الدنيا الآخرة، أي أن الظاهرة يجب أن ينظر إليها وتعالج كحا?ت إحباط وفشل ومشاعر إحساس بالضعف والفشل، ولا يمكن فهمها خارج إطار مناهج علمَّي الاجتماع والنفس الاجتماعي بالذات.

-٨-

هناك عامل آخر لا يمكن إهماله أدى دورًا أساسيًا كعامل مثير ومهيج للتوجهات الطائفية، على الأقل في الجانب الشيعي في العراق، فمن القواعد القانونية أو الإدارية المتبعة هي أن يعفى عادة الطلاب المستمرون في الدراسة من الخدمة العسكرية، ويسقط هذا الحق عند الرسوب لسنتين متتاليتين، حيث يرفض القانون متابعة الطالب دراسته بعدها في المدارس الرسمية..

فقد وجد الطلاب الفاشلون ممن نفدت فرصهم في المدارس الحكومية ملجأ لهم في المدارس الدينية التي تقوم بتسجيلهم فيها مقابل أقساط زهيدة، ما يسمح لهم بأن يرتدوا زي رجال الدين ولبس العمامة للتخلص من متابعات الشرطة

العسكرية، وقد تفاقمت الظاهرة خلال الحرب العراقية الإيرانية، فوجد الإنسان نفسه أمام كم هائل وطبقة جديدة من رجال الدين، طارئة ولا علاقة لها بالدين، عدا أنها محكومة بالجهل عامة، وهي لا تشبه ما عرفته المؤسسة الدينية الشيعية من رجال دين وعلماء شكلوا علامات مميزة في الفقه والشريعة والتقوى والورع والإيمان قبل ظهور مشكلة التجنيد الإجباري.

إن هذه الفئة أو الطبقة من رجال الدين تدرك أكثر من غيرها كما يعرف المطلعون من أبناء الطائفة؛ أن علاقتها بالدين هي علاقة مصلحية خالصة لمجموعات من الفاشلين والمهمّشين الذين لا يجيدون عمل حرفة أو مهنة، فكانت الشعوذة والدجل أدواتهم للارتزاق، وما كان لهم أن ينتعشوا من دون تنامي مشاعر الطائفية التي تؤسس على العزلة ونبذ الآخر، لكنها تعزز أيضًا الواقع الاجتماعي وتوفر الكسب المادي لهذا المهمش، ليغدو هو مصدر معرفة الناس بدينهم.

إن الفئة من رجال الدين تعرف أكثر من غيرها كيف أنها تنتمي في الأصل إلى فئات اجتماعية مهمّشة، وهذا ما يعزز لديها لا شعوريًا مستوى متدنيًا مما يعرف باعتبار أو تقدير الذات، لذلك يغدو التعصب الطائفي بالنسبة إلى هؤلاء هو البيئة الفضلى لتعزيز مشاعر أرقى من اعتبار الذات، وتحسين نظرة الناس إليهم ونظرتهم عن أنفسهم.

يقابل ذلك أن أغلب طلاب كليات الشريعة لا ينتسبون إليها باختيارهم، بل بضغط تدني معدلاتهم في الثانوية العامة التي تحرمهم من دخول كليات يميل الطلاب عادة إلى دخولها لضمان مصادر اقتصادية جيدة للعيش ومكانة اجتماعية مميزة، كالطب والهندسة والحقوق وغيرها من الكليات الأخرى.

وكما هو رجل الدين الشيعي؛ تغدو الطائفية لهؤلاء المشايخ وسيلة لتحقيق ما يشعرون به من حرمان اضطرهم تدني مستواهم الدراسي إلى فقدانهم إياها،

ولا يمكن تعويضها إلا ضمن مؤسسات طائفية مزدهرة ومسندة بتعاطف جماهيري واسع.

لو أخذنا بمفهوم (المنابع) التي قال به الكاتب فالح عبد الجبار؛ فتلك هي المنابع الحقيقية للطائفية التي لا شك في أنها ليست ببعيدة من إدراك الغرب ومراكز بحوثه ودراساته، وهو المحكوم بمعاداة الحركات القومية العربية، وحتى اليسارية الماركسية التي مثلت تهديدًا لمصالحه في الوطن العربي، وأربكت خططه في فترة الخمسينيات، وحتى أواخر السبعينيات من القرن الماضي، فراح يعزز مشاعر الإحباط والإحساس بالعجز والفشل، ويجند طاقاته العلمية والإعلامية للتلاعب بالعقول وتوجيهها بما يخدم أغراضه، تارة بالتدخل العسكري المباشر لفرض خطط تقسيمية، مستغلاً الطائفية ليدعم مؤسساتها، ويروّج لها من خلال مجموعات من تابعين مدربين لهذا الغرض.

وقد كشفت دراسة سبق أن نشرتها مجلة المستقبل العربي تحت عنوان: (تبّت أياديهم.. إنهم يقتلون الشيعة على الهوية) كيف كانت بعض من الحركات الدينية الشيعية تقوم بتفجيرات وأعمال استفزازية في مناطق شيعية ضد الشيعة أنفسهم لاتهام أطراف من أبناء المذاهب الأخرى بعمليات التفجير أو الاستفزاز، لشحن عواطفهم الطائفية بشحنات عائية ضد الآخر، فتبدو المؤسسات والأحزاب الدينية الطائفية وكأنها تمثل القلاع الحصينة لحماية الطائفة من هذه التفجيرات، وما تعنيه من نيات الآخر لإفناء الطائفة.

-٩-

طبعًا، تعني هذه العوامل الداخلية إهمال دور العامل الخارجي ومخططاته وسلوكياته في تأجيج المشاعر الطائفية، بل إن إهمالا كهذا كما لاحظنا في ورقة فالح عبد الجبار يلغي أي موضوعية لأي بحث للمشكلة، التي هي باختصار حصيلة تفاعل عوامل سياسية اقتصادية اجتماعية انتجت حالات أو

مركبات نفسية لا شعورية ضاغطة على المنظومة السيكولوجية للإنسان، وقد تشابكت مع عوامل ومحاولات تحريض خارجي مدروس ومخطط من قبل قوى خارجية معنية بالشؤون العربية، وذات مصالح كبرى في إبقاء الأمة العربية ممزقة ومتخلّفة وضعيفة.

فلا يمكن تجاوز مشروع شارون إيتان الذي عرف بـــ (استراتيجية إسرائيل لثمانينيات وتسعينيات القرن)، الذي نشرت نصوصه منظمة التحرير الفلسطينية عام ١٩٨٢، وخطط الحاكم المدني الأمريكي بريمر في عراق بعد الاحتلال، التي أرساها بجهوده الخيّرة لرفع المظلومية التاريخية عن الشيعة، كما وضح في الجزء الأوّل من مذكراته، ثم تعاطفه مع مظلومية السُّنة التي بدأ يشير إليها في الجزء الأخير من مذكراته، وعشرات الدراسات التي ظلت تخطط لتفتيت الأقطار العربية وتقسيمها كمشروع برنارد لويس، مستفيدة من تعاون وارتباط ما كنا نعرفه من قوى الرجعية العربية، لتكون الذراع النشط لتنفيذ ما ترسمه مراكز البحوث والدراسات الغربية من خطط عدوانية معادية لكل ما هو عربي واستثمار أخطاء ما عرف بالأنظمة الوطنية التي مارس بعضها القمع بشكل مفرط، ما جعلها تمثل عامل تهديد مرعب للمواطن العربي.

ولا يستقيم البحث أو الحديث عن موضوع (الطائفية) من دون النظر إليها والأخذ في الحسبان أنها حالة مرضية ، كأية حالة من حالات الهيستريا الاجتماعية التي تصيب المجتمعات عامة، ونموذج نكوصي لمجتمع ظلت كتب التاريخ تتغنى بأمجاده وأدواره التاريخية في المساهمة في تطور الحضارة العالمية، لكنه يعيش في الواقع حالة من التردي والانحطاط والتخلف، ما يضعه على هامش التاريخ والحضارة.